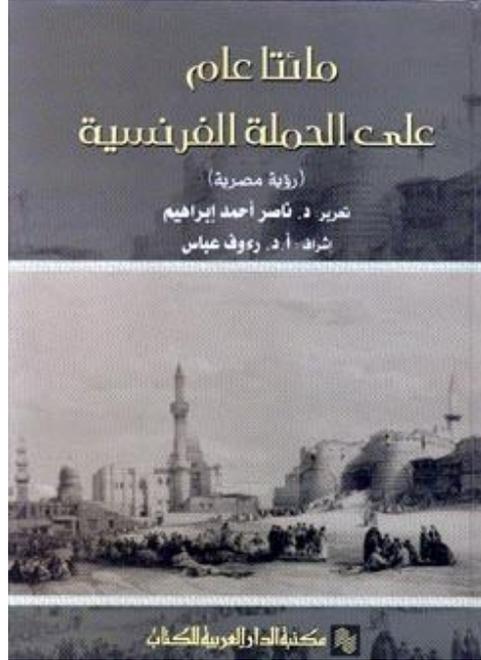


9 إبريل 2008

قراءة للحملة الفرنسية علي مصر: الحملة استفادت من مصر أكثر من استفادة مصر منها

محمود قرني



القاهرة . القدس العربي مانتا عام علي الحملة الفرنسية، رؤية مصرية مجلد جديد صدر عن مكتبة الدار العربية للكتاب بالقاهرة، والكتاب من تحرير د ناصر حمد إبراهيم وتحت إشراف الدكتور رؤوف عباس، وشارك فيه أكثر من عشرين باحثاً ومؤرخاً.

يدرس الكتاب الحملة الفرنسية علي مصر 1798، 1801 من شتي الزوايا، وقد تم تقسيم الكتاب الي أبواب مثل: المقاومة، نقد المشروع، إشكاليات الترجمة، الحملة الفرنسية في المصادر والمناهج، اتجاهات التفسير المتعقبة بها، وكيف تجلت الكتابات عنها في المنظور العربي المعاصر، وهل كانت الحملة صدمة فعلا، ثم تختتم الأبواب بقراءة نقدية للمسألة كلها، في رؤية مصرية لتطور التاريخ الحديث في مصر، ذلك التاريخ الذي يجعل البعض الحملة الفرنسية مفصلا من مفاصله الرئيسية، برغم أنها كانت قطعا في التطور الطبيعي لهذا التاريخ.

لم تقع الدراسات التي حوaha الكتاب تحت وطأة الانبهار بالفرنسيين، الأمر الذي أتاح للرؤي المتنوعة أن تكون موضوعية وخالية من التحامل الذي تحتمله الرؤي التاريخية، ولم تقع كذلك في فخ رؤية الذات، رؤية متعالية اعتمادا علي تاريخها الذي كان ذهبيا، وإنما تم وضع الحملة في سياقها من تطور التاريخ العالمي في الشرق الأوسط، وفي القلب منه مصر، ذلك أنه عندما جري الاحتفال في مصر بمناسبة مرور قرنين علي الحملة، كانت معظم كتابات الفرنسيين تركز علي الحملة باعتبارها رسالة حضارية قامت من خلالها فرنسا بنقل الحضارة الغربية الي الشرق الإسلامي المتخلف، ولعل صدور هذا الكتاب الآن، في ظل الصراع علي الشرق الأوسط ايضا، بما يشكل حلقة متشابهة مع ظروف الحملة في نهاية القرن الثامن عشر، لعل هذا الصدور يعني أن المهتمين بتاريخ المنطقة غير غافلين عما يجري حولهم من صراعات وأنهم علي مستوي التحدي الحضاري.

والكتاب الذي صدر في 750 صفحة من القطع الكبير، كان محصلة مؤتمر الجمعية التاريخية الذي خصصته لهذا الموضوع عام 1998، من منطلق إعادة تقييم الحدث ووضع ما ترتب عليه من آثار سياسية وثقافية علي مصر والشرق العربي في حجمها الحقيقي، حسب وصف الدكتور رؤوف عباس المشرف علي الكتاب، الذي يضيف أن الكتاب وضع الحملة الفرنسية في إطار المشروع الاستعماري الأوروبي، ولذلك يتوقف امام موجات المقاومة الضارية التي لقيتها الحملة في البقاع والاقطار المصرية، فلم تتركز المقاومة في القاهرة والاسكندرية فحسب، بل شملت ريف الدلتا والصعيد، كما أن الوجود الفرنسي في مصر لم يكن هينا لينا، بل واجه جنود الحملة مختلف الأمراض التي حصدت أرواح بعضهم كما أفقدت الإصابة بالرمد الصيدي العديد منهم نعمة البصر. يختتم رؤوف عباس تقديمه بنقطة مهمة تغيب عن بال الكثيرين حين يقول: لم تكن تعيننا رؤية شيوخ المؤرخين وحدهم بل حرصنا علي أن نعطي المساحة الأكبر لشباب الباحثين حتي يتحقق التواصل الفكري بين الأجيال ويتاح للشباب التعبير عن رؤيتهم الخاصة لهذا الحدث. ويضيف عباس: لم تغب عن بحوث الندوة إبراز الدلالة السياسية للحملة من حيث لفت انظار المصريين والعرب الي عجز السلطة العثمانية عن حماية التراب الوطني من العدوان الأجنبي، وإحساس المصريين وخاصة قيادتهم الشعبية بضرورة وضع أسس الحكم علي قواعد جديدة تسمح لهم بقدر من المشاركة فيه، يدخل في هذا السياق المقاومة الشعبية لطغيان الجند العثمانيين والمماليك بعد خروج الحملة، والدور الذي لعبته القيادة الشعبية في اختيار الوالي الذي يحكمهم محمد علي وفق شروط محددة، وقدره مدي تأثير محمد علي بالنظام العسكري الحديث الذي لمس من الاحتكاك بالفرنسيين قبل خروجهم من مصر، والأسباب التي دفعت الي الاستعانة بالفرنسيين في مشروعه السياسي.

أما الدكتور ناصر أحمد إبراهيم محرر الكتاب فيري أنه بات من الضروري قراءة مثل هذا الحدث الكبير بعيدا عن النزعة القومية في الكتابة التاريخية التي تؤثر تقديم الأفكار علي الوقائع أو تقلص مجال الرؤية عن متابعة التطورات الحقيقية التي صاحبت ذلك الحدث، وهو ما يراه ناصر سببا فرض نفسه عن عمل الكتاب لا سيما في محاولة تقديم صورة موضوعية تعيد تقييم حدث الاحتلال الفرنسي لمصر علي ضوء الظروف التي أحاطت به، كما تكشفها الوثائق الفرنسية والمصرية. قراءة متحررة من أسر المقولات التقليدية والتوجهات السياسية والرهانات الأيديولوجية التي ماتزال تهيمن علي وعينا التاريخي إزاء تلك الفترة. يضيف ناصر إبراهيم سببا آخر لإصدار مثل هذا الكتاب الرجعي عن الحملة الفرنسية ألا وهو المتمثل في وجوه اهتمام أكاديمي ملحوظ بدأ مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التي أخذت زمام المبادرة وعقدت ندوة كبيرة حول الحملة الفرنسية في العام 1998 ولسوء الحظ لم تشر أوراق تلك الندوة . حسب إبراهيم . لكنها كانت موحية بأهمية فتح النقاش حول قراءة هذا الحدث.

يوضح إبراهيم المقصود بجملة رؤية مصرية للحدث انه ليس بالضرورة يحمل رؤي تناقض الرؤية الفرنسية، لكنه في كل الأوراق ولدي كل الباحثين - كان هناك طرح علمي دون الاستناد الي قاعدة أيديولوجية ويقول ان الأفكار المتضمنة في الكتاب لا تمت بصلة لأي نزعة قومية أو ذاتية، وتشهد بذلك الإشكاليات المتباينة والمناهج المختلفة وأحيانا الآراء المتناقضة المتضمنة في بحوث هذا الكتاب.

ويقول محرر الكتاب انه يشتمل علي محورين كبيرين الأول يدور حول الاحتلال الفرنسي كحدث تاريخي، والثاني يقدم النظرة التاريخية للحدث، ومن ثم فالمعالجة تأخذ مستويين من النقد والمراجعة، مستوي يناقش الكيفية التي تطورت بها الوقائع خلف هذا الحدث، والمستوي الآخر يتوقف عن المناهج التي عالجت الموضوع وتطورها علي مدار القرن الماضي.

ويلفت المحرر الي سمة أساسية ميزت المحاور التي انطوي عليها الكتاب وهي طابع الشمول والتكامل والانسجام بين الموضوعات المعالجة فيه، حيث تم التنسيق بين المحاور التي غطت بالفعل جوانب عديدة من تاريخ الاحتلال الفرنسي، الرفض والاحتجاج والمقاومة وتنوع أساليبها وأشكالها ما بين مقاومة مباشرة انتشرت في كل مكان، ومقاومة غير مباشرة ظلت تتحدي الاحتلال وتطوق عليه الحصار الاقتصادي الداخلي بأساليب خفية أعجزته عن تدبير احتياجاته الأولية وجعلت استمراريته بقائه مستحيلة، ومن المقاومة إلي الدعاية لكل ما هو أيديولوجي اثناء الاحتلال ما بعد جلاء الاحتلال، وفن صناعة الأسطورة وعقربية الدعاية السياسية ومخاطرها في تزييف الواقع وتشويه الحقائق التاريخية.

ويقول الدكتور ناصر إبراهيم ان معظم الاسهامات في هذا الكتاب تشير الي رفض قاطع لقبول تفسير الاحتلال الفرنسي لمصر علي ضوء نظرية الاستعمار الإيجابي أو التعامل معها علي أنها مشروع تنويري كما قدمت الأوراق . حسب ناصر . شواهد وقرائن مهمة تنفي صحة مقولة الفراغ الثقافي والعلمي قبل مجيء الاحتلال الفرنسي، وأن قصر مدة الاحتلال مع انتشار الثورات وأنواع المقاومة المختلفة التي عمت وقائعها معظم مدن وقرى الدلتا والصعيد، والانشغال الدائم بمواجهتها، فضلا عن حاجز اللغة وتباين ثقافة وسلوكيات الضباط والجنود المناخية للدين والعقيدة، وخصوصية العادات والتقاليد المحلية، الي جانب حالة الاستعلاء التي ميزت بشكل عام نظرة الفرنسيين الي المصريين، قد حالت جميعها دون وجود أرضية مشتركة للحوار والتواصل بين الجانبين آنذاك سوي في حدود ضيقة، وييري إبراهيم أن كل ذلك أثار الشكوك حول مدي اندماج المصريين وتفاعلهم مع ما قدم لهم من الاحتلال الفرنسي سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. إن كانت هذه النقطة الأخيرة الاندماج والتفاعل بين الجيش والمجتمع لم تعالج بصورة كافية، وتعد من الموضوعات الهامة التي ماتزال في حاجة الي ان يفرد لها مجموعة من الدراسات والبحوث.

كما يشير ناصر إبراهيم الي ان الاسهامات في داخل الكتاب أترف رفض هيمنة الخطاب الفرنسي والانتقائي الذي ساد نمط الكتابة عن الحملة لعقود طويلة، أن جربة الإصلاح والتحديث في النصف الأول من القرن التاسع عشر لا يمكن اختزلها او اعتبارها مجرد أثر ناجم عن هذا المؤثر الخارجي المتمثل في تلك الغزوة

العسكرية، ويضيف إبراهيم أن الأوراق من ناحية أخرى تؤكد علي أن الحدث لم يمر علي المصريين مرورا عابرا دون أن يترك أثارا معينة غير مباشرة جعلت المصريين يدركون حقيقة تخلفهم وضرورة سد الفجوة الفاصلة بينهم وبين الغرب، ويشير أيضا الي أن بعض وجهات النظر في هذا الكتاب تعارض هذه النتائج وتمسك بأن الاحتلال الفرنسي كان صدمة حضارية وثقافية ظهرت انعكاساته بعد ذلك خلال تجربة التحديث في القرن التاسع عشر. شارك في هذا الكتاب كل من الدكتور نبيل الطوخي ببحث تحت عنوان وسائل المقاومة في صعيد مصر ضد الحملة الفرنسية، والدكتور ناصر احمد إبراهيم محرر الكتاب الذي شارك ببحث تحت عنوان مقاومة تحت السطح المباشرون الأقباط والحملة الفرنسية، والدكتورة ليلي غان ببحث تحت عنوان كيف وظف نابليون الفن للدعاية لحملة علي مصر ، والدكتور علي كورخان ببحث تحت عنوان صورة نابليون من الدعاية الي الاسطورة بين فرنسا ومصر، كما شارك الدكتور صبري العدل ببحث تحت عنوان الحملة الفرنسية وأسطورة نقل العلوم الحديثة الي مصر في القرن الثامن عشر ، وشارك الدكتور رؤوف عباس ببحث تحت عنوان مشروع قناة السويس بين الحملة الفرنسية وبيدليسيس ، وشاركت الدكتورة مديحة دوس ببحث تحت عنوان المنشورات والأوامر الصادرة باللغتين العربية والفرنسية بين أعوام 1798. 1801، وشاركت الدكتورة داليا علي محمد ببحث تحت عنوان دراسة لغوية لسبعة منشورات صادرة باللغتين الفرنسية والعربية ، والدكتورة مها جاد الحق شاركت ببحث تحت عنوان قراءة نقدية لترجمة كاردان لحوليات الجبرتي ونيقولا التير لأصول الحملة الفرنسية ، وشاركت الدكتورة منال خضر ببحث تحت عنوان وصف مصر، نظرة الآخر.

وشاركت الدكتورة هناء فريد ببحث تحت عنوان الرفض والرفض المضاد ، والدكتورة عايدة حسني شاركت ببحث تحت عنوان قراءة سيميوطيقية لبعض لوحات قسم الآثار في كتاب وصف مصر ورحلة فيضان ديتون ، وشاركت الدكتورة رعدة أبو الفتوح ببحث تحت عنوان قراءة في رحلة فيغان دينون، رحلة في مصر السفلى والعليا خلال حملات الجنرال بوتنبرت.

وقدمت الدكتورة فريدة جاد الحق بحثا آخر بعنوان الحملة الفرنسية في الخطاب التاريخي الفرنسي نموذج الكتب المدرسية للمرحلة الابتدائية وقدمت هناء فريد أيضا ورقة بعنوان الحملة الفرنسية في الخطاب التاريخي المصري دراسة تحليلية لمناهج مادة التاريخ في المرحلة الإعدادية، وقدمت الدكتورة جيهان القاضي بحثا بعنوان صورة المصريين والفرنسيين اثناء الحملة عند بعض المؤرخين الفرنسيين خلال حكم الملك فؤاد الأول ، وقدم الدكتور محمد صبري الدالي بحثا بعنوان اتجاهات في تفسير نتائج الاحتلال الفرنسي لمصر ، وقدم الدكتور صادق نعيمة بحثا بعنوان محصلة متعارضة وجهة نظر المؤرخين المصريين وقدم الكاتب محمد إسماعيل زاهر ورقة بعنوان الحملة الفرنسية: الوعي بالتاريخ من خلال الآخر، وقدم الدكتور عاصم الدسوقي بحثا بعنوان الفرنسيون في مصر ستشارة العقل.

يقع الكتاب في حوالي 750 صفحة من القطع الكبير وجاء مزودا ببعض الصور والوثائق التي شهدتها الحملة.

<http://www.alquds.co.uk/index.asp?fname=2008\04\04-09\07m16.htm&storytitle=ff&storytitlec=&storytitleb=20%منها=20%مصر20%محمود=20%قري>